فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

(قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و«منارا» كمنار الطريق)

(مصر — الاربعاء ١٦ المحرم سنة ١٣٢٣ — ٢٢ مارس (آذار) سنة ١٩٠٥)

باب المقالات

حياة الأمم وموتها

ان للاجسام حياة وللنفوس حياة غير حياة الاجسام ولكن بعضهما يرتبط ببعض، وان للافراد حياة وللامم حياة غير حياة الافراد ولكن احداهما تتوقف على الأخرى

يعرف الجسم الحي بطلب الغذاء الذي يحفظ حياته من الخارج ويدفع العوارض الضارة عنه وإفراز المواد الميتة من بنيته، ويستوي في هذه الحياة النبات والحيوان. وتعرف النفس الحية بالحرص على الكرامة وارتفاع المنزلة بالحق وبدفع أسباب المهانة وتوقي طرقها وبالنضال عن الشرف أن تصل إليه أيدي العابثين، أو يصيبه وهم الواهمين، وأما حياة الأمة فهي أثر روح يسري في أفرادها فيشعرهم بأن مكان كل واحد منهم من مجموع الأمة مكان أحد أعضائه من جسده فهو يلاحظ في كل عمل منفعة نفسه ومنفعة أمته معاً كما ان عمل كل عضو في البدن يكون سبباً في حفظ حياته من حيث هو سبب لحفظ حياة البدن كله

الجسم الحي أشرف من الجسم الميت وأبقى بل الاجسام الميتة تكون غذاء للاجسام

الحية ومتاعاً تتناول منه ما تحتاج اليه لتجعله عوضاً عما يندثر منها وينفصل عنها كذلك الأمم الحية تتغذى من الامم الميتة وتنتزع منها ما تحتاج اليه في حفظ حياتها وطول بقائها ودوام عزتها وشرفها . فالأمة الحية أشرف من الأمة الميتة وأرقى في مرتبة الوجود

قد يشتبه على الجاهلين التفاضل بين الناس في الحياة والموت بهذا المعنى فيذهب الجهل ببعضهم الى أن زيداً الميت أفضل من عمرو الحي بما هو أكثر مالا وعشيرة وأحسن أثاثاً ورئياً . ولو رجعوا إلى العلم الصحيح والاختبار الدقيق لرأوا أنفسهم يفضلون معاملة فلان التاجر الذي يملك ألف دينار على فلان الوارث الذي يملك مئة ألف ويرون من الثقة والرجاء في الأول مالا يرون في الثاني لان الاول يجمع ويشيد ، والثاني يبيد ويبدد ، فالالف تنمو في كل عام ، ومئة الألف تنقص في كل يوم من الأيام ، حتى ان حديد البصر يرى الأول غنياً مثرياً ، والثاني فقيراً مستجدياً ، ذلك أنه ينظر الى المستقبل الذي يسيران اليه ، فيمثل له في الحاضر الذي يراها فيه ،

معرفة شؤون الامم والشعوب ، اخفى على الاكثرين من معرفة حال الافراد والبيوت ، فكم من جاهل يفضل أمة على أخرى لأنها أصح ديناً وأعدل شريعة ، أو لانها أشرف أرومة وأعرق في المجد جرثومة ، أو لأن تراثها من سلفها أكثر ، ومزاياها الجنسية أشهر ، أو لانها أكثر عدداً ومدداً ، وأعز عشيرة ونفراً ، واذا صح أن يكون هذا كله أو بعضه للأمة الميتة زمناً من الأزمان فانه لا يبقى الا ريثما تتصل بها أمة حية ، فترى هذه تمتص جميع مزايا تلك ومقوماتها الحيوية ، وتلك تحمل آفات هذه وعللها البشرية ، حتى تكون إحداهما في عليين ، والأخرى في أسفل سافلين ،

يسهل على القارئ في الشرق القريب ، أن ينظر فيما بين يديه من الشعوب التي تضمها جنسية سياسية أو لغوية ، وتفصل بينها روابط نسبية أو ملية ، فانه يرى شعبين يمتاز أحدهما بكثرة العدد وكثرة المال وقوة الحكم وقوة العلم ثم يجد نفسه تفضل قليل المزايا منهما على كثيرها لانه يرى الشعب الكثير المزايا يتمزق ويتفرق فتذهب مزاياه بذهاب الاعوام ، والشعب القليل المزايا ينمو ويسمو ويجتمع ويتألف فيعز ويشرف باقبال الايام ، يرى الشعب الكبير يتخاذل فيتضاءل ، والشعب الصغير يتلاءم

ويتعاظم ، وما ذلك الا ان فى أحدها نسمة حياة تدفع عنه الاعراض الضارة بالشعوب فيقوى ويزكو ، وتغذيه كل يوم بفذاء جديد فينمو ويسمو ، وليس فى الآخر شيء من هذه الحياة فهو كجسم العاشق يذوب ويضمحل ، ويحقر ويذل .

ويسهل على القارئ في الشرق البعيد (كالهند) أن يرى مثل هذين الشعبين المتقابلين في الحياة والموت ولكنه يرى أكبرهما هو الذي يعز ويترقى ، وأصغرهما هو الذي يذل ويتدلى ، فلا تغره حينئذ دعوى بعض المتطفلين على علم الاجتماع وسنن الخليقة أن علة الحياة فى الشعب الصغير القريب هي صغره وقلة عدده لان اجتماع العدد القليل للتعاون والتناصر وتوحيد المصلحة العامة أسهل من اجتماع العدد الكثير ، ويشبه هذا الوهم تعليل بعضهم لنجاح صاحب الالف ونمو ثروته ، وخيبة صاحب المئة الالف والعقار الواسع وتبدد تراثه بأن تثمير المال القليل أسهل من تثمير الكثير ، كذلك يقول من لا يعرف معنى الحياة فى الامم والافراد ولسنا بصدد بيان علة حياة الحي وموت الميت على الاطلاق ولا بيان علة حياة أمة معينة وموت أخرى فنفيض في كشف وهم الواهمين وجهل الجاهلين ، وانما غرضنا بيان معنى الحياة المعنوية ومميزات واجديها ، ومخازي فاقديها .

التمييز بين أمة فى أعلى مراقي الحياة وأوج العزة والقوة ، وامة فى الحضيض الاوهد ، والشقاء المؤصد ، مما يتناوله كل نظر ، ويحكم به كل عقل ، ولكن التمييز بين أمتين أو شعبين أحدهما يموت بعد حياة وثانيهما يحيا بعد موت هو الذي يخفى على غير علماء الاجتماع المدققين لان الذي اعتاد على الحكم بادي الرأي يخدع بما يرى فى الاول من علامات الحياة الموروثة كآثارة من علم ، وبقية من حكم ، لا يجد مثلهما عند الثاني فهو كمن يفضل وارث مئة الالف على كاسب الالف جاهلا بما وراء ذلك من مصير ثروة الوارث الى الزوال ، ومصير ثروة الكاسب الى النماء .

لا يغرنك ما ترى من آيات الحياة فى أمة تقطعت روابطها ، وانفصمت عروة الثقة بين أفرادها ، ونفض اليها النظام ، وفقدت التلاحم والالتئام ، وان كان ما تراه أخلاقا كريمة ، ومعارف صحيحة ، وثروة واسعة ، وسلطة نافذة ، مع العلم بأن هذه الاشياء كلها هي آثار الحياة توجد بوجودها وتذهب لذهابها ، فقد يكون ذلك من بقايا ارث

قديم ، يعبث به الفساد الحديث، الا أن ترى العلم والاخلاق تقرب البعيد، وتجمع الشتيت ، وتزيد في الثقة بين الناس ، وتدعو الى التعاون على البر والإحسان، وترى الثروة تجمع مع ملاحظة مصلحة الامة، وينفق جزء منها على المنافع العامة، وترى السلطة موجهة لدفع الاذى عن البلاد ، واقامة العدل في العباد، واسعاد الافراد على الاستقلال، واعدادهم لمشاركة الحاكمين في الاعمال.

روح الحياة في الامة تحول الشر الى خير ، وفقدها يحول الفضائل الى رذائل ، فما يكون فيها من عزة وإباء يصير كبراً وعجباً ، وما يبقى من كرم وسماح يصير اسرافاً وتبذيراً ، وتكون الشجاعة فيها سبباً للاعتداء والإيذاء، وجودة الرأي وسيلة للمكر والاحتيال ، ويتحول فيها حب الشرف والكمال، الى حب الفخفخة بالالقاب، وينقلب التنافس تحاسداً ، والايثار أثرة وطمعاً، وقس على هذا سائر الاخلاق التي تفسد ، كذلك يكون العلم آلة لاهله يكيدون بها الناس ويوقعون بينهم ليستفيد الكائد من النزاع والشقاق . أما السلطة فانها تكون الآلة المحللة لكل التئام، والممزقة لكل شمل ، والمفرقة لكل اجتماع ، الا الاجتماع لتأييدها والخنوع لاصحابها حتى ان الملك أو الامير ليتجر بالامة اتجاراً بل يكون هو الغاصب والناهب ما استطاع حتى اذا لم يبق للامة قوة حافظة يبيعها للاجانب بالمحافظة على رياسته الصورية، وتمكينه من شهواته الحيوانية والشيطانية ،

تسري الامراض الاجتماعية في الامم فتذهب منها بمقومات الحياة من حيث لا تشعر ولا تدري ولذلك يبقى لها الغرور والدعوى بأنها أشرف الامم وأفضلها ويعسر على من يكون على علم بأمراض الامم ان يقنعها بأن أمة وضيعة مهينة وان كانت أصوات الاهانة تصيح بها في كل يوم، وأسواط العذاب تقع عليها في كل آن ، واذا كانت متكئة في غرورها على عصا الدين كان اقناعها أعسر، وإشعارها أبعد، وان نخرت أرضة البدع تلك المنسأة فانكسرت، وخرت الامة في مهواة الضلال فهلكت.

اذا أهاب الداعي بالامة المغرورة بالدين ، وحاول اقناعها بالبراهين ، وايقاظ الشعور فيها بما تذوق من العذاب المهين، وانبه حماة البدع الجديد، وحمل عليه انصار التقليد، واستعانوا عليه بالامراء المستبدين، وحالوا بينه وبين العامة المساكين ، بل

العامة هي قوة رؤساء الدنيا والدين ، بها يصولون على المصلحين ، ولو كانوا يقارعون الدليل بالدليل ، ويساورون البرهان بالبرهان ، لظهر للعامة سوء حالهم ، وفساد أقوالهم وأفعالهم ، ولكان للمصلح على انفراده ، وضعف أنصاره وأعوانه ، ما يغلبهم به على عزة سلطانهم ، وعظم شأنهم ، لان الحق نصيره ، والفطرة البشرية عونه ، لولا أنهم يفسدونها بتقاليدهم ، ويحولون بينها وبين نور الاصلاح بغيوم سلطتهم « وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »

أظهر دلائل الحياة في الامة التولد والنمو في أسباب الارتقاء من العلوم والفضائل والاعمال العمومية فلا يموت فيها شيء بموت القائم به . وأظهر دلائل الموت العقم والانحلال في ذلك فلا يكاد يذهب منها شيء من الخير ويخلفه مثله وانما يموت العلم بموت العلماء والفضل بموت الفضلاء حتى تبقى حثالتهم تبسل الامة

لا تنزع روح الحياة من الامة بما يعرض عليها من الامراض الا اذا فتكت هذه بمزاج الامة الجامع لافرادها واذا كان مزاج الجسم يتألف من أمشاج متعددة كالدم والعصب واللمفا فمزاج الامة الاجتماعي يتألف مثله من اصول متعددة كالنسب والجنسية والدين والحكومة لذلك ترى الباحثين في اصلاح الامم الفاسدة المزاج يختلفون فيقول بعضهم ان الامة لا تحيا الا بتربية النساء التي هي الاصل في صلاح البيوت ويقول آخرون إنها لا تحيا الا بتقوية الرابطة الجنسية التي تكون باللغة أو الوطن ويقول غيرهما ان الاصل في الحياة هو الاصلاح الديني — على ان الدين عند المسلمين حاكم في كل شيء فاصلاحهم من جهته اصلاح لكل شيء — ويخالفهم مخالفون قائلين بل الاصلاح انما يكون بصلاح حال الحكومة لان السياسة هي المدبرة لكل شيء . والصواب ان معالجة كل ما فسد من الاصول التي يتألف منها المزاج مما لا بد منه لشفاء الامة وجعلها في عداد الامم الحية . ولكن يقال ان هذه الاصول ترجع الى أصلين الامة والحكومة أيهما صلح سهل عليه اصلاح الآخر ولكن ما يجيء من جانب الحكومة يكون أسرع ، وما يأتي من الامة يكون أدوم وأثبت ، وقد بينا ذلك في السنة الاولى من سني المنار ، وسننشر في الاجزاء الآتية مقالات في أنواع الحياة النسبية أو الزوجية والملية والجنسية والسياسية ونبين كيف يكون الاصلاح فيها والله الملهم للسداد